

علم الأديان في الفكر الإسلامي المنطلقات والمنهج

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف (*)

ملخص البحث:

علم الأديان في الفكر الإسلامي هو علم يتضمن النظر في الديانات والملل والنحل، ويتتبع أصولها ومصادرها ونصوصها عرضاً وحكماً، وبيان الدين الحق، وهو من هذه الناحية مختلف عن علم الأديان في الفكر الغربي المهتم بالجانب الوظيفي من الدين، ويعد علم الأديان من أبرز العلوم التي أنتجت الحضارة الإسلامية، وهو علم انبثق من علم الاعتقاد، وشاركت فيه أغلب المذاهب الإسلامية على اختلاف عقائدها وآرائها، ويعد المسلمون هم أول من ابتكر علم الأديان، حيث نشأ هذا العلم في وقت مبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية، تحت أسماء عدة، حيث كان لاتساع رقعة البلاد الإسلامية واحتكاك المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة، إضافة إلى التسامح الديني الذي جاء به الإسلام محفزاً لميلاد علم الأديان عند المسلمين، حيث انطلق علم الأديان من مبدأ الاختلاف مع الاعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق، إضافة إلى الحياد والأمانة واستخدام العقل مع أصحاب الأديان الأخرى.

كما أن علم الأديان في الفكر الإسلامي ليس علماً مجرداً من المنهجية العلمية، وإنما هو علم يتبع منهجية علمية منضبطة كالمنهج الوصفي، والمنهج المقارن، والمنهج النقدي، وهذه المنهجيات يكمل بعضها بعضاً، حيث كان لهذه المنهجيات العلمية دور في تطور علم الأديان في الفكر الغربي.

الكلمات المفتاحية: نقد الدين، مناهج دراسة الدين، علم الملل والنحل.

(*) قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية.

Abstract:

The science of religions in Islamic thought is a science that includes examining religions and religious sects, presenting religions and judging them. It is one of the most prominent sciences produced by Muslims, and most Islamic sects participated in it. It is different from the science of religions in the West, which is concerned with the functional aspect of religion. Muslims are the first to invent the science of religions, as the expansion of the Islamic country and the contact of Muslims with other people of different religions, in addition to the religious tolerance that Islam brought, motivated the birth of the science of religions among Muslims, as the science of religions started from the principle of difference while recognizing that Islam is The true religion, in addition to neutrality, honesty, and the use of reason with people of other religions.

The science of religions in Islamic thought is a science that follows a disciplined scientific methodology such as the descriptive method, the comparative method, and the critical method, and these methodologies complement each other, as these scientific methodologies played a role in the development of the science of religions in the West.

Keywords:

Criticism of religion, methods of studying religion, theology of religions and religions.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

يعد الدين جوهرًا أساسيًا في حياة النفس الإنسانية، ولذلك لا توجد أمة من الأمم بلا دين، ومن أجل ذلك تنوعت الأديان وتفرعت، فأصبح لكل شعب مجموعة من الأديان، وهذه الأديان تتشابه فيما بينها وتختلف بناء على مصدر الدين، سواء أكان مصدرًا وضعيًا أو مصدرًا إلهيًا، وكان لاختلاط البشر بعضهم ببعض سبب رئيس في التعرف على الأديان الأخرى، ولكن هذا التعرف لم يكن تعرفًا أكثر من المعرفة العامة التي هي أشبه بالمعرفة البسيطة التي تشابه معرفة الشعوب أو الصنائع أو العادات الاجتماعية، دون أن تكون هذه المعرفة معرفة علمية ترقى إلى مستوى الدراسة والبحث.

ولما جاء الإسلام أرسى قواعد علم الأديان، وذلك بذكر عقائد الأديان ومناقشتها وإعطاء المنهج الصحيح في التعاطي مع الآراء والمعتقدات، وكان لاتساع رقعة البلاد الإسلامية، واختلاط المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى دافع لدراسة عقائد الأديان من ناحية تاريخ هذه الأديان وأسسها وعقائدها دراسة مقارنة، ومن ثمّ نقدها وبيان ما فيها من الزيف والتبديل، ومن هذه اللحظة بالذات بدأ علم الأديان يتشكل في الفكر الإسلامي، بداية من الرد البسيط على أصحاب الديانات الأخرى، إلى أن صار هذا العلم أكثر تطورًا في دراسة الأديان وفق منطلقات ومنهجيات علمية، كان لها كبير الأثر في أن أصبح هذا العلم يعد مفخرة من مفاخر العلوم الإسلامية، التي لم يسبق إليها.

وفي هذا البحث المختصر حرصت قدر الإمكان على تتبع ميلاد علم الأديان في الفكر الإسلامي، ثم الحديث عن منطلقات هذا العلم، ثم الحديث عن المنهجية العلمية التي اختطها علم الأديان لنفسه في الفكر الإسلامي، مركزًا في ذلك على أبرز الأفكار الرئيسة في هذا المجال.

علم الأديان في الفكر الإسلامي

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الإجابة على الأسئلة التالية:

- ما أسس علم الأديان في الفكر الإسلامي ومنطلقاته؟.
- ما القواعد والمنهجيات العلمية التي يتبعها علم الأديان في الفكر الإسلامي؟.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الوقوف على الأسس والمنطلقات التي اختطها علم الأديان لنفسه في الفكر الإسلامي، كما يهدف هذا البحث أيضاً إلى الوقوف على المنهجيات التي سلكها علم الأديان في الفكر الإسلام في دراسة للأديان الأخرى. يكتسب بالبحث أهميته في إظهار المنطلقات والأسس التي قام عليها علم الأديان في الفكر الإسلامي، كما يكتسب البحث أهميته في إظهار منهج علم الأديان في الفكر الإسلامي، وأن هذا العلم بالذات قام على منهجيات متعددة يكمل بعضها بعضاً، وهذا على خلاف علم الأديان في الغرب الذي لا يُعنى إلا بالجانب الوظيفي من الدين.

خطة البحث:

وقد سار لبحث على الخطة التالية:

* المقدمة: وفيها بيان مشكلة البحث وأهدافه وأهميته.

* المبحث الأول: علم الأديان المفهوم والمباحث.

* المبحث الثاني: ميلاد علم الأديان ومكانته في الفكر الإسلامي.

* المبحث الثالث: منطلقات علم الأديان.

المطلب الأول: الإقرار بمبدأ الاختلاف مع الاعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق.

المطلب الثاني: الحياد والأمانة.

المطلب الثالث: استخدام العقل.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

* المبحث الرابع: منهجية علم الأديان في الفكر الإسلامي.

المطلب الأول: المنهج الوصفي.

المطلب الثاني: المنهج المقارن.

المطلب الثالث: المنهج النقدي.

ثم الخاتمة. وفهرس المصادر والمراجع.

والله أسأل أن يكون هذا البحث خالصاً لوجه الكريم إنه سميع قريب مجيب

المبحث الأول

علم الأديان المفهوم والمباحث

يعد علم الأديان من أبرز العلوم التي أنتجتها الحضارة الإسلامية، وهو علم انبثق من علم الاعتقاد، وشاركت فيه أغلب المذاهب الإسلامية على اختلاف عقائدها وآرائها، وقد تعددت تعريفات علم الأديان كما هو ممارس في الفكر الإسلامي، ومن أجمع هذه التعاريف هو أنه: "علم يتضمن النظر في الديانات والملل والنحل، يتتبع أصولها وفروعها ومصادرها، ونصوصها عرضاً وحكماً، بالرد على أصحابها، وتزييف مقالاتهم المخالفة لعقائد وشرائع الإسلام، وبيان ما طرأ على الصحيح منها من تحريف وتبديل"^(١).

فالعلم من حيث الموضوع يتناول الأديان بشكل عام، سواء أكانت أدياناً سماوية أم أدياناً وضعية، وأما من ناحية المنهج فهو علم له منهجه الخاص المعتمد على تتبع عقائد الأديان وبيان مخالفتها للدين للإسلامي، وسيأتي مزيد من تفصيل هذه النقطة، أما هدف هذا العلم فهو الوصول إلى اكتشاف الحقيقة فيما يتعلق بعقائد الأديان وتاريخها، وليس الهدف منه الوصف لذات الوصف فقط.

وعلم الأديان في الفكر الإسلامي علم يشتمل على ثلاثة مباحث رئيسية، وكل حقل من هذه المباحث كتب فيه المسلمون، سواء مصنفاً خاصة، أو معلومات انضوت تحت مباحث أخرى، وهذه الحقول الثلاثة هي:

- تاريخ الأديان: وهي المباحث التي تتحدث عن تاريخ كل دين ورجالاته والظروف التي لحقت بهذا الدين، وتطور الدين إضافة إلى أسباب انتشاره.

(١) الاتجاه العقلي في نقد الأديان في الفكر الإسلامي الخصائص والمنهج، يوسف شعباني:

- الأسس والمبادئ: ويدرس هذا المبحث من مباحث علم الأديان الأسس التي يقوم عليها الدين وبخاصة في موضوع الألوهية وطقوس العبادة والمعاملات والأخلاق وغيرها.

- مقارنة الأديان ونقدها: وهذا الحقل يدرس عقائد الأديان ويقارنها بغيرها؛ وذلك من أجل نقدها.

وهذه المباحث الثلاثة هي غالب مباحث علم الأديان، وبعض هذه المباحث احتوت على مصنفات خاصة بها، كغالب مصنفات علم الأديان، وبعض هذه المباحث انضوت تحت حقول أخرى كالتاريخ أو التفسير وغيرها.

ما سبق هي مجالات علم الأديان في الفكر الإسلامي، أما في العصور المتأخرة -وخصوصاً في الدراسات الغربية- فقد استحدثت مجالات أخرى في دراسة الدين، فقد دخل علم الاجتماع الحديث وعلم النفس في دراسة الدين، بحيث كانت هذه العلوم تهتم ليس بدراسة العقيدة الدينية، وإنما تدرس الدين من ناحية وظيفية؛ أي وظيفة الدين في المجتمع، أو تأثير الدين في الإنسان من ناحية نفسية. وقد عرف المستشرق جب علم الأديان بناء على هذا المفهوم المعاصر بأنه: "دراسة علمية وموضوعية تتناول ديانات العالم الماضية والحاضرة، وهذه الدراسة تتوخى دراسة الديانات في ذاتها، واكتشاف ما يقوم بينها من نقاط تشابه واختلاف، واستخلاص مفهوم الدين بوجه عام عبر ذلك، وإيضاح السمات المميزة للشعور الديني"^(١).

ويظهر الفرق بين علم الأديان في الفكر الإسلامي وعلم الأديان في الفكر الغربي؛ هو أن علم الأديان في الفكر الغربي غير معني بجانب الحقيقة، وإنما الذي يعنيه هو الجانب المعرفي والجانب الوظيفي في الدين؛ أي وظيفة الدين في المجتمع والنفس الإنسانية، وليس البحث عن الدين الحق الذي هو سبب النجاة في الآخرة.

(١) علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، المستشرق جب: ص ٥.

المبحث الثاني

ميلاد علم الأديان ومكانته في الفكر الإسلامي

إن الحديث عن الأديان والمقارنة بينها والحوار معها في الإسلام ولد مع نزول القرآن الكريم؛ إذ يعد النص القرآني من هذه الناحية التأسيس الأولي لعلم الأديان في الإسلام، سواء من ناحية ذكره للأديان الأخرى غير الإسلام كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [الحج: ١٧]، أو عرض معتقدات الديانات الأخرى، سواءً أكانت أدياناً سماوية أم غير سماوية، وهذا كثير جداً في القرآن، هذا إضافة إلى المنهج القرآني السليم في الحوار مع غير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى كما في قوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٦]، وفي سيرة الرسول ﷺ مواقف عديدة في الحديث مع أهل الكتاب والحوار معهم؛ كحواره ﷺ مع نصارى نجران^(١)، وحواراته المتعددة مع يهود المدينة^(٢)، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير منها وغيرها، وقد حظيت كتب السنة وشروحها، وكتب التفسير والتاريخ والتراجم بالكثير من مباحث علم الأديان.

وما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من أمر الأديان وأسس دراستها والمنهجية العلمية في التعامل معها؛ يعد تأكيداً لأهمية هذا الحقل من حقول العلم، لذلك انطلق العلماء المسلمون في الحركة النقدية من دراسة الأديان القائمة على المنهج العلمي، بعد أن كان الحديث عن الأديان قبل ذلك هو عبارة عن أحاديث

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ابن هشام: ١٥٩/٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: {من كان عدواً لجبريل}

ح(٤٢١٠).

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

عامة يتبادلها الناس كما يتبادلون أحاديثهم وقصصهم، وفي هذا يقول عبد الله دراز: "إن الحديث عن الأديان بعد أن كان في العصور السابقة إما مغموراً في لجة الأحاديث عن شؤون الحياة... أصبح في كتاب العرب دراسة وصفية واقعية منعزلة عن سائر العلوم والفنون، شاملة كافة الأديان المعروفة في عهدهم، فكان لهم السبق في تدوينه علماً مستقلاً"^(١).

وإذا اعتبرنا القرآن والسنة أسساً لعلم الأديان، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية واحتكاك المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة، إضافة إلى التسامح الديني الذي جاء به الإسلام محفزاً لميلاد علم الأديان عند المسلمين، وكان اختلاط المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات محفزاً لدراسة الأديان، بل إن التاريخ يشير إلى أن المسلمين هم أول من ابتكر علم الأديان، وقد أشار المستشرق آدم منتر إلى هذا حيث يقول عن هذه الأولوية: "وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى سبباً في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى؛ وهو علم مقارنة الملل"^(٢).

وقد نشأ علم الأديان في وقت مبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية، تحت أسماء عدة، منها ما يحمل اسماً عاماً كالأديان أو الملل، ومنها ما يحمل اسماً خاصاً تجاه دين معين، وقد وظف المعتزلة الأوائل علم الكلام في الحوار مع أصحاب الديانات الأخرى كالصابئة والبراهمة والمانوية والمجوس وغيرهم، وقد ذكر ابن المرتضى في طبقات المعتزلة أن واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ) ألف "كتاب الألف في الرد على المانوية"^(٣)، هذا إضافة إلى أن المأمون الذي ناصر

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ص ٢١ بتصرف.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم منتر ١/٣٨٤.

(٣) انظر: طبقات المعتزلة، ابن المرتضى ص ٣٥.

علم الأديان في الفكر الإسلامي

الاعتزال أمر بالرد على خصوم الإسلام^(١)، وقد ذكر الذهبي أن أبا بكر بن الأصم (ت ٢٠١هـ) شيخ المعتزلة ألف كتبًا في "الرد على الملحدة والرد على المجوس"^(٢)، وكتب النوبختي (ت ٢٠٢هـ) أيضًا كتابه "الآراء والديانات"^(٣)، كما ذكر الذهبي أيضًا أن لأبي الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ) كتبًا في الرد على المجوس، وفي الرد على الملحدين وفي الرد على اليهود^(٤)، ومثله أيضًا الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي ألف في الرد على النصارى والرد على اليهود^(٥)، وأيضًا ألف أبو علي الجبائي (ت ٣٠٣هـ) في الرد على أهل النجوم^(٦)، وكتب المسعودي (ت ٣٩٦هـ) كتابه "إدراك البغية في وصف الأديان والعبادات"^(٧)، تلك كانت البدايات الأولى لعلم الأديان، ثم بعد ذلك نضج العلم، بعد أن تطورت منهجيات البحث والمقارنة والدراسات الكتابية، فقد كتب أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) في أديان الهند وبخاصة مصنفه المشهور "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة"، ثم جاء عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) فألف كتابًا بعنوان "الملل والنحل"، ثم تقدم علم الأديان أكثر بمصنف الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) الشهير بـ"الفصل في الملل والأهواء والنحل"، ثم جاء عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ) وصنف كتابه الموسوعي "الملل والنحل"، وما ذكر لا يعني الحصر؛ فإن هناك الكثير من المصنفات في الأديان تحدث فيها مؤلفوها عن الأديان تحت أبواب أخرى من العلم؛ كتفسير ابن جرير الطبري على سبيل المثال،

(١) انظر: طبقات المعتزلة، ابن المرتضى: ص ١٢٣.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ٤٠٢/٩.

(٣) انظر: الفهرست، ابن النديم: ص ٢٢٠.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١١/١٧٤.

(٥) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١١/٥٣٠.

(٦) انظر: طبقات المعتزلة، ابن المرتضى: ص ٩٩.

(٧) انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة: ١٧٨٢/٢.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

أو في كتب التاريخ كالبداية والنهاية لابن كثير، أو كتب الجغرافيا ككتاب الخطط للمقرئزي، وغيرها، لكن الذي يعيننا هي المصنفات التي استقلت بحقل خاص للأديان؛ إذ الكثير من العلماء كتب في الأديان سواء مصنفًا خاصًا بدين معين، أو مصنفًا يدرس فيه مجموعة من الديانات، فهذا أشبه بالتقليد عند كثير من العلماء المشتغلين بعلم الاعتقاد على اختلاف مذاهبهم. والملاحظ أن عموم المذاهب الإسلامية على اختلافاتها العقيدية كلها شاركت في بناء علم الأديان، وأن وحدة الموضوع والهدف ووحدة المنطلقات اختفت معه الخلافات المذهبية.

وكما سبق فإن علم الأديان ممارس في الفكر الإسلامي تحت أسماء عدة، وكلها تحمل المضامين نفسها، أما المصطلح المشهور بـ(علم الأديان) فإن أول من استعمله ماكس مولر؛ إذ ظهر مصطلح (علم الأديان) أول مرة ترجمة حرفية للكلمة الألمانية (Religions wissenschaft) التي استعملها ماكس مولر عام ١٨٦٨م عنوانًا لكتابه، وكانت تعني حرفيًا: الدراسة العلمية للأديان^(١)، لكن هذا لا يعني أولية هذا المصطلح، أو أن علم الأديان لم يكن ممارسًا قبل هذا التاريخ، فكما سبق أن هذا العلم ممارس في التاريخ الإسلامي تحت أسماء عدة، وتتنوع فيه المدارس والمناهج كما سيأتي لاحقًا.

**

(١) انظر: علم الأديان، خزعل الماجدي: ص ٤٩.

المبحث الثالث

منطلقات علم الأديان

المطلب الأول: الإقرار بمبدأ الاختلاف مع الاعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق:

لما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية إبان منذ اللحظات الأولى أنه امتداد للرسالات السابقة، ومصدق لها كما في قوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ} [آل عمران: ٣] بل جعل من شرط الإيمان؛ الإيمان بالرسول والأنبياء السابقين، وما أنزل عليهم من الكتب السماوية كما في قوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]، كما اعترف الإسلام بوجود الاختلاف بين البشر كما في قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩]، قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية: "والمراد افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال"^(١). وهذا الاختلاف يوجب ألا يُكره أحد على الإسلام، بل للإنسان حرية اختيار الدين الذي يرتضيه كما في قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦] قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلئلته وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً"^(٢). وعدم الإكراه على الدين، وإعطاء

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٤١٠/١٨.

(٢) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٦٨٢/١.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

الإنسان حرية الاختيار، لا تعني صوابية هذا الاختيار أيًا كان، بل تعني أن المسؤولية الكاملة تقع على الفرد باختياره، كما في قوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنََّّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩]، ولذلك أقر الإسلام مبدأ التعايش المشترك بين الأديان، مع الاعتراف بأن الدين الحق هو الإسلام، وغاية ما يمكن تجاه الأديان الأخرى هو دعوتهم إلى الدين الحق وهو الإسلام، فقد قال سبحانه وتعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه أيضًا: {وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت: ٤٦].

وحقيقة الاختلاف لا تعني ضياع الحق، وإنما الدين الذي ارتضاه الله سبحانه لخلقهم ليكون خاتمة الأديان هو الإسلام، كما في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، فإن النبي ﷺ أرسل إلى الناس كافة على خلاف غيره من الأنبياء كما في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]، ويقول سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: ٩]، وقال سبحانه أيضًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [النساء: ٤٧]، وهذه الآيات وغيرها موجّهة إلى كل من لا يدين بدين الإسلام بعد مبعث النبي ﷺ، بأن الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد سواه هو الإسلام، ويجب على كل أتباع الأديان الأخرى أن يلتزموا بالإسلام، وأن الله لن يقبل من أحد سواه كما في قوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥]، ومن هذا المنطلق إضافة إلى وجود الاختلاف بين البشر؛ راح علماء الإسلام يبحثون في الأديان، كلُّ بناءً على المنهج الذي اختطه لنفسه.

إن الملاحظ فيما كتبه المسلمون في علم الأديان التزام الدقة المنهجية المنضبطة، والتي تسير على أطر علمية متوازنة، فمن ذلك الأمانة في النقل وحكاية الآراء، فالخصومة مع المخالف لا تعني التجاوز في النقل عنه، بل إن الأمانة منهج قرآني كما في قوله تعالى: ﴿لِبِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوتُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ولذلك كان من شرط الشهرستاني في ذكره لمعتقدات الأديان الرجوع إلى مصادرها الأصلية حيث يقول: "فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل، وأهل الأهواء والنحل، والوقوف على مصادرها ومواردها، واقتناص أوانسها وشواردها، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تدين به المتدينون، وانتحله المنتحلون"^(١)، وقال في نهاية الكتاب: "هذا ما وجدته من مقالات أهل العالم، ونقلته على ما وجدته، فمن صادف فيه خللاً في النقل فأصلحه، أصلحه الله عز وجل، وسدد أقواله وأفعاله"^(٢) وعلى أهمية الرجوع إلى المراجع الأصلية حتى مع اختلاف اللغات؛ فقد جعل ذلك أبو الريحان البيروني أساساً في نقل عقائد الأديان حيث يقول: "ولقد أعييتني المداخل فيه مع حرصي الذي تفردت به في أيامي، وبذلي الممكن غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظان واستحضار من يهتدي لها من المكامن"^(٣)، كما أن أبا الريحاني البيروني تقدم بمنهج الأمانة والحياد إلى أهمية فحص المقالات المنقولة عن بعض أصحاب الديانات، وأنه قد يدخل فيها المنحول حيث يقول: "وكان وقع المثال في فحوى الكلام على أديان الهند ومذاهبهم، فأشرت إلى أن أكثرها هو

(١) الملل والنحل، الشهرستاني: ٩/١.

(٢) السابق: ١١٠/٣.

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة، أبو الريحاني البيروني: ص ٢١.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

مسطور في الكتب هو منحول، وبعضها عن بعض منقول، وملقوت مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشدب^(١)، ومنهج الأمانة والحيادية مستمر فيما كتب علماء المسلمين سواء المتقدم منهم أو المتأخر، المشاركة منهم أو المغاربة، فقد قال أحمد بن عبد الصمد الخزرجي الأندلسي في خاتمة كتابه مقامع الصلبان: "وقد أوردت في هذه الرسالة ما فيه دلالات على سوء ما انتحلوه، ولم أنص فيها من التوراة والإنجيل والزيور وصحف الأنبياء إلا ما هو بأيديهم في وقتنا هذا... ولم أورد من ذلك إلا ما قرأته في كتبهم العبرانية، ووفقت عليها بنفسي، وطالعت منها بعض تفاسيرها وشافهتهم بها"^(٢).

إن الملاحظ أن المدة التي كتب فيها المسلمون في علم الأديان ومقارنتها؛ إنما كانت في مرحلة قوة، إذ كان المسلمون يسيطرون على رقعة واسعة من العالم، ولم يكن هناك ضغط من أصحاب الديانات الأخرى على المسلمين، ولذلك لم يكن يتصور أن يكون هناك مؤثرات في كتابة عقائد الأديان الأخرى ونقدها، وإنما كان منطلقهم الحيادية والأمانة الذي دعا إليه القرآن.

المطلب الثالث: استخدام العقل:

إذا كانت العلاقة بين الأديان مبنية على المفصلة، فكل دين يرى أنه هو الذي يمتلك الحقيقة، ولا يعترف بالحقيقة للدين الآخر؛ فإنه لا بد أن تكون هناك نقاط مشتركة يستطيع أهل الأديان أن يتناظروا فيما بينهم ويتحاوروا للوصول إلى الحقيقة، وعندما لا يعترف كل طرف بالنصوص الدينية للآخر؛ فإن القاسم المشترك هو الدليل العقلي، فهو الدليل الذي تقبل به الأطراف كلها؛ لذلك كان الاتجاه العقلي في علم الأديان في الفكر الإسلامي هو المنطلق الأساسي في

(١) تحقيق ما للهند من مقولة، أبو الريحاني البيروني: ص ١٥.

(٢) مقامع الصلبان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي: ص ١٩٦ بتصرف.

علم الأديان في الفكر الإسلامي

حوار غير المسلمين، وأما أدلة الكتاب والسنة فهي شواهد للدليل العقلي في علم الأديان عند المسلمين.

وعند استقراء ما كتبه المسلمون في علم الأديان؛ فإن أبرز ما يميز ذلك هو استحضر المخاطبة العقلية، ومن شواهد ذلك ما اتخذهُ أبو الحسن محمد بن يوسف العامري في منهجه المقارن بين الأديان استحضره للدليل العقلي، حيث يقول: "من الواجب على الإنسان أن يعرض جميع ما يسنح لقوته المتخيلة من الأبواب الاعتقادية على قوته العاقلة؛ ليأمن به آفات الكذب"^(١).

وإذا كان من المهم حضور العقل في منهج المقارنة عند العامري، فإن العامري أكد في الوقت نفسه أن هذا المنهج يشترط أطراح التقليد، فإن التقليد قد يؤدي إلى انحراف مسار النتيجة، بل يجب على المسلم أن يلتزم منهج القرآن في العدل والإنصاف، واتباع الحق من أي طريق جاء، وفي هذا يؤكد العامري للباحث في علم الأديان: "ألا يكابر ما أوجبه العقل الصريح، لمحبة التقليد، وخصوصاً لمن لا يُشهد له بالعصمة، فإن الحق لا يعرف بالرجال، بل يعرف بنفسه"^(٢).

وأما ابن حزم فيعد من أكثر العلماء الذي استحضروا الدليل العقلي في نقده للأديان، وذلك لأن المنهج النقدي الذي اختطه لنفسه يستلزم ذلك أكثر من غيره؛ إذ يسمي ابن حزم هذه الأدلة بالبراهين، حتى إن السمة البارزة في كتاب الفصل هي كثرة البراهين في المسألة الواحدة، فمثلاً يقول في أحد أبواب الكتاب: "باب مختصر جامع في ماهية البراهين الجامعة الموصلة إلى معرفة الحق في كل ما اختلف فيه الناس وكيفية إقامتها"^(٣).

(١) الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري: ص ٧٩.

(٢) السابق: ص ١١٨.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١٠/١.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

والمنطلق العقلي قد اشترك فيه جميع من كتب من المسلمين في الأديان، وقد استقرأ ذلك صاحب كتاب "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب" وهو قسيس سابق من أهل الأندلس اسمه إنسلم تورميديا، أسلم وتسمى بعبد الله الترجمان، وكتب في الرد على النصارى عام (٨٢٣هـ) ومما يميز شهادته أنه متأخر؛ إذ سبر مصنفات المسلمين في علم الأديان وقال: "ووجدت تصانيف علمائنا الإسلاميين - رضي الله عنهم - محتوية على ما لا مزيد عليه، إلا أنهم رحمهم الله قد سلخوا في معظم احتجاجهم على أهل الكتاب من النصارى واليهود مسلك مقتضيات المعقول"^(١).

وهذا المنطلق العقلي في دراسة الأديان كان له كبير الأثر في بيان حقيقة الأديان من التحريف والتبديل، وبيان ما عليه الإسلام من الحق، وهذا ما جعل هذه المصنفات العلمية التي كتبها المسلمون في الأديان تستمر في عطائها إلى عدة قرون تالية، وتؤسس لمنهج نقدي في علم الأديان استفادت منه الدراسات الغربية في دراسة الأديان ونقدها.

**

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان الأندلسي: ص ٣١.

المبحث الرابع

منهجية علم الأديان في الفكر الإسلامي

إن المنتبِع لما كتبه المسلمون في علم الأديان يجد أن منهجيات المصنِّفين في هذا الحقل من العلم تنوعت في عرض الأديان ونقدها، وليس الغرض هنا هو التفصيل، وإنما الغرض هو بيان أن علم الأديان في الفكر الإسلامي ليس علمًا مجردًا من المنهجية العلمية، وإنما هو علم يتبع منهجية علمية منضبطة حسب قواعد العلم التي ارتضاها صاحب التأليف على اختلاف بينهم في هذه المنهجيات، وهذه المنهجيات العلمية من الصعوبة أن تتحقق في مصنف واحد، فإن هذا ليس مراد علم الأديان في الفكر الإسلامي، وإنما هذه المنهجيات يكمل بعضها بعضًا، ومن أهم هذه المنهجيات العلمية في دراسة الأديان ما يلي:

المطلب الأول: المنهج الوصفي:

المنهج الوصفي: هو "المنهج الذي يسلك فيه المؤلفون جانب العرض التاريخي والوصف السردي دون حكم على المقولات أو نقد لها"^(١)، وعلى هذا فالمنهجية الوصفية تُعنى ببسط الآراء والمعتقدات بحيث يكون الهدف هو العرض، وليس نقد هذه الآراء في الأغلب، وهو أشبه بجمع الآراء كمرحلة أولى، لمن يأتي في مرحلة لاحقة في استخدام هذا الوصف والعرض ليقوم عليه بناءً نقديًا.

وقد تعددت الدراسات الوصفية في علم الأديان في الفكر الإسلامي، وليس الغرض هو إحصاءها، وإنما الغرض هو بيان هذا المنهج من خلال بعض المصنفات الإسلامية في علم الأديان التي اتجهت إلى هذا المنهج دون غيره، ومن أمثلة ذلك: البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة"، إذ ينص البيروني على المنهجية الوصفية لعمله في علم الأديان بأنه لا يُعنى بالحجاج ونقد المخالف، وإنما هو الوصف والعرض، حيث يقول في مفتتح كتابه: "وليس الكتاب

(١) مناهج البحث في العقيدة، يوسف السعيد: ص ٢٩٣.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

كتاب حجاج وجدل، حتى أستعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورد كلام الهند على وجهه^(١)، وقال في موضوع آخر يبين أن دراسته وصفية لا نقدية؛ إذ يقول: "وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم -أي الهنود- حاكٍ غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة"^(٢)، بل إن البيروني وضع قواعد للمنهج الوصفي في دراسة الأديان وأهمها المشاهدة والنقل الصحيح، وانتقد المنهج الوصفي غير المنضبط، الذي لا يعتمد على المشاهدة الحقة أو النقل الصحيح، حيث يقول: "والموجود عندنا من كتب المقالات وما عمل في الآراء والديانات لا يشتمل إلا على مثله، فمن لم يعرف حقيقة الحال فيها اغترف منها ما لا يفيد عند أهلها والعالم بأحوالها"^(٣)، وقد أجاد البيروني في هذا المنهج أيما إجادة، وساعده في ذلك إتقانه للغة الهند، وتعايشه مع أهل الديانات الهندية مدة طويلة؛ بغية التحقيق في نقل ما يراه من معتقدات وآراء.

وإذا كان البيروني في منهجه الوصفي اقتصر على ديانات الهند؛ فإن الشهرستاني سلك المنهجية الوصفية نفسها في عموم الديانات التي درسها في العموم الأغلب؛ إذ يقول مبيئاً منهجه الوصفي في كتابه الملل والنحل: "وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم؛ من غير تعصب لهم، ولا كسر عليهم؛ دون أن أبين صحيحه من فاسده، وأعين حقه من باطله، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل، وبالله التوفيق"^(٤).

(١) تحقيق ما للهند من مقولة، البيروني: ص ١٥.

(٢) السابق: ص ٢٢.

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة، البيروني: ص ١٥.

(٤) الملل والنحل، الشهرستاني: ١/١٤.

علم الأديان في الفكر الإسلامي

وهذه المنهجية الوصفية في دراسة الأديان هي مقدمة ضرورية للمنهجية المقارنة والمنهجية النقدية التي تعتمد على الوصف كمرحلة أولى، وتأتي بعدها المقارنة والحكم؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولذلك صارت الدراسات الوصفية في مجال علم الأديان أساساً وقاعدة بُنيت عليها كثير من الدراسات النقدية المقارنة في مجال الأديان قديماً وحديثاً.

المطلب الثاني: المنهج المقارن

المنهج المقارن: هو "منهج يسلك فيه الربط بين الموضوعات المتعددة لاستخلاص أوجه الشبه أو الخلاف بينها، ثم الخروج من ذلك بحكم تدعمه النتائج العلمية"^(١)، ويعد المنهج المقارن منهجاً رائداً في دراسة الأديان في الفكر الإسلامي، من حيث مقارنة عقائد الأديان بعضها مع بعض، وكذلك شعائرها، للانتهاء إلى نتيجة من خلال هذه المقارنة العلمية، وهي أن الدين الحق هو الإسلام، ويعد أبو الحسن العامري رائداً في منهج المقارنة في علم الأديان، وذلك في كتابه "الإعلام بمناقب الإسلام"؛ فقد توجهت دراسة العامري في الأديان إلى الأديان الستة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧]، وجعل العامري محور المقارنة في هذه الأديان هي العقائد والعبادات، والمعاملات، والحدود، بصفاتها أصولاً مشتركة؛ إذ يقول العامري عن منهج المقارنة هذا: "فغير بعيد أن يعلم العاقل بأدنى رؤية أنه ليس ولا واحد من الأديان الستة التي لها خطط وممالك المذكورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] إلا وله اعتقاد بشيء يجري سعيه إليه، ومنهج في العبودية يتحرى بالتزامه إقامة الطاعة، وأوضاع في المعاملات ينتظم بها معاشهم، ورسوم في المزاج يتحصن بها عن

(١) مناهج البحث في العقيدة، يوسف السعيد: ص ٢٩٧.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

البوائق والأشرار، وإذا كان هذا أمرًا يقرب على العقل تناوله والوقوف على صدقه؛ فمن الواجب أن نصف الأركان التي عليها مدار كل واحد من هذه الأقسام الأربعة: أعني الأركان الاعتقادية، والأركان العبادية، والأركان المعاملية، والأركان المزاجية، ليتمكن به المتدين من مقابلة كل ركن بركن مما يدين به بنظيره الذي أطرحه من الأديان^(١)، وقد وضح أبو الحسن العامري ماهية المنهج المقارن الذي سلكه بما يسميه (الأشكال المتجانسة) فلا يصح -في نظر العامري- مقارنة أصل بفرع، أو مقارنة جانب مهم في دين بجانب أقل أهمية في دين آخر، فهنا لا يتحقق مبدأ المجانسة، وفي توضيح هذا المنهج الفريد يقول العامري: "وقبل أن نشرع فيما وعدناه من مقابلة ركن بركن مما يترتب تحت الملة الحنيفية بنظيره من المرتب تحت الأديان الأخرى؛ يجب أن نقدم مقدمة فنقول: إن تبيان فضيلة الشيء على الشيء بحسب المقابلات بينهما قد يكون صوابًا وقد يكون خطأ. وصورة الصواب معلقة بشيئين: أحدهما: ألا يُوقع المقايسة إلا بين الأشكال المتجانسة، أعني ألا يعتمد إلى أشرف ما في هذا فيقيسه بأرذل ما في صاحبه، ويعتمد إلى أصل من أصول هذا فيقابلة بفرع من فروع ذلك. والآخر: ألا يعتمد إلى خلة موصوفة في فرقة من الفرق غير مستقيضة في كافتها؛ فينسبها إلى جملة طبقاتها. ومتى حافظ العقل في المقابلة بين الأشياء على هذين المعنيين؛ فقد سهل عليه المأخذ في توفية حظوظ المتقابلات، وكان ملازمًا للصواب في أمره"^(٢).

والملاحظ أن المنهجية المقارنة التي يتبعها العامري تقوم على عملية استقرائية تحليلية، للقضايا المشتركة بين الأديان وتحليلها تحليلًا موضوعيًا؛ لأن هذه

(١) الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري: ص ١٢١.

(٢) الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري: ص ١٢٥.

علم الأديان في الفكر الإسلامي

العملية أرضية مناسبة لعملية المقارنة التي هي هدف العامري في مشروعه في علم الأديان.

المطلب الثالث: المنهج النقدي:

بعد المنهج الوصفي والمقارن تأتي الدرجة الأعلى في دراسة علم الأديان وهي المنهج النقدي، ويُعرف المنهج النقدي بأنه: "عرض عناصر موضوع معين على الموازين الدقيقة لمعرفة صحتها من فسادها"^(١)، ويعد الإمام ابن حزم رائد المنهج النقدي في علم الأديان، بل يعد من هذه الناحية سابقاً لكثير من الدراسات النقدية للأديان التي كانت في الغرب؛ كنفذ إسبينوزا للدين وغيره، ولعل من أهم ما يميّز به ابن حزم في منهجه النقدي هو نقد النص الديني، سواء أكان هذا النقد من خارج النص أم نقداً من داخل النص. وقد ذكر الشرقاوي في دراسته لابن حزم قوله: "يعد ابن حزم الأندلسي أول باحث فيما نعلم يدرس العهد القديم عموماً والأسفار الخمسة خصوصاً دراسة تحليلية نقدية، يوظف فيها هذا الأسلوب المنهجي الرصين، لذا فلا غرابة أن يطلق عليه مؤرخ الأديان الفرنسي المعاصر لايوليه لقب رائد هذه الدراسات في الفكر الإنساني كله"^(٢).

ونقد ابن حزم هذا ليس خالياً من البرهان العلمي، بل إن المنهج النقدي الذي سلكه ابن حزم قائم على البرهان، وفي هذا يقول ابن حزم في مفتتح كتابه: "فجمعنا كتابنا هذا مع استخارتنا الله - عز وجل - في جمعه، وقصدنا به إيراد البراهين المنتجة عن المقدمات الحسية أو الراجعة إلى الحس - من قرب أو من بعد - على حسب قيام البراهين التي لا تخون أصلاً مخرجها إلى ما أخرجت له، وألا يصح منه إلا ما صححت البراهين المذكورة فقط؛ إذ ليس الحق إلا ذلك"^(٣).

(١) مناهج البحث في العقيدة، يوسف السعيد: ص ٢٩٥.

(٢) منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي وإسبينوزا، محمد عبد الله الشرقاوي: ص ١٩.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ٩/١.

أ.د. خالد بن عبد العزيز السيف

كذلك فإن ابن حزم التزم أيضاً الوضوح في النقد والاعتراض وإقامة البراهين الواضحة، والبعد عن الدعاوى المجردة التي لا يسندها الدليل والبرهان؛ لأن هذا ليس من المنهج النقدي العلمي؛ فيقول في هذا: "وليعلم كل من قرأ كتابنا هذا أننا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئاً يمكن أن يخرج على وجه ما، وإن دق وبعده؛ فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له، وكذلك أيضاً لم نخرج منه كلاماً لا يفهم، وإن كان ذلك موجوداً فيها؛ لأن للقاتل أن يقول قد أصاب الله ما أراد، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه، ولا وجه أصلاً إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلاً لا محتملاً ولا خفياً"^(١).

وعند دراسة ابن حزم للأديان - مع استحضاره الدليل والبرهان - سلك مسلكاً فريداً في النقد، وهو النقد المعتمد على نقد النص الديني، سواء من خارج النص نفسه، أو داخل النص، ففي نقد النص الديني من الخارج تتبع ابن حزم نص التوراة من الخارج وكيف كانت ترحلات النص الديني اليهودي عبر التاريخ من موسى عليه السلام إلى أن استقر بأيدي اليهود، وما الظروف التي مرت على حفظ التوراة، وكيف نُقلت عبر الأجيال، وهذا المسلك الذي سلكه ابن حزم هو نقد للسند؛ أي للنص من خارج النص نفسه؛ إذ يقول في مفتتح نقده لذلك: "ونحن نصف إن شاء الله تعالى حال كون التوراة عند بني إسرائيل من أول دولتهم إثر موت موسى عليه السلام، إلى انقراض دولتهم، إلى رجوعهم إلى بيت المقدس، إلى أن كتبها لهم عزرا الوراق بإجماع من كتبهم واتفاق من علمائهم، دون خلاف يوجد من أحد منهم في ذلك، وما اختلفوا فيه من ذلك نبهنا عليه، ليتيقن كل ذي فهم أنها محرفة مبدلة وبالله تعالى نستعين"^(٢).

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١/٩٤.

(٢) السابق: ١/١٤١.

علم الأديان في الفكر الإسلامي

وإذا كان ابن حزم سلك في منهجه النقدي نقد النص الديني من الخارج؛ فإنه أيضًا اتجه إلى النص نفسه من الداخل بغية تحليله وفهمه، وبيان ما يعترى هذا النص من إشكالات، فقد استعرض ابن حزم الأخطاء التي يكتنفها النص الديني الكتابي، وبيان ما فيه من أخطاء تنتهي إلى أن النص الذي بأيدي أهل الكتاب محرّف ومبدّل، ففي كثير منها يتناقض مع الحقائق العقلية، وبعض ذلك يتناقض مع الحقائق التاريخية، وحتى بعضها تكذبه المواقع الجغرافية والعلوم الضرورية؛ إذ يقول: "ها هنا انتهى ما وجدنا من التوراة لليهود التي اتفق عليها الريانيون والعنانيون والعيسويون والصدوقيون منهم مع النصارى أيضًا بلا خلاف منهم فيها من الكذب الظاهر في الأخبار، وفيما يخبر به عن الله تعالى، ثم عن ملائكته، ثم عن رسله عليهم السلام، من المناقضات الظاهرة والفواحش المضافة إلى الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يكن فيها إلا فصل واحد من الفصول التي ذكرنا لكان موجبًا، ولا بد لكونها موضوعة محرفة مبدلة مكذوبة فكيف وهي سبعة وخمسون فصلًا"^(١).

إن ابن حزم في منهجيته النقدية هذه يعد أول عالم يمارس نقد الكتاب المقدس باستخدام منهجية نقد النص من داخل النص ومن خارجه بتوسع واستفاضة، وهو من هذه الزاوية رائد في مدرسة نقد النصوص الدينية؛ إذ سبق كثيرًا من فلاسفة الغرب في نقد الكتاب المقدس، وكثير من أعلام الفكر الغربي كإسبينوزا تأثروا بنقد ابن حزم في منهجية نقد النص المقدس، واستمدوا الكثير من منهجه سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

**

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ١/١٤١.

الخاتمة

- بعد هذه الجولة السريعة في علم الأديان في الفكر الإسلامي؛ أعود لأسجل أهم النتائج التي انتهى إليها البحث بالنقاط التالية:
- يعد علم الأديان من أبرز العلوم التي أنتجت الحضارة الإسلامية، وهو علم يبحث في تاريخ الديانات ومبادئها وأصولها، ودراسة نصوصها وشعائرها ومقارنتها بالإسلام، كما يهدف هذا العلم من ناحية أساسية إلى بيان هيمنة الإسلام على الأديان كلها.
 - ولد علم الأديان في الفكر الإسلام بداية من تأسيس القرآن والسنة لهذا العلم، وكان اختلاط المسلمين بغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى إضافة إلى تسامح المسلمين مع غيرهم سبباً رئيساً في أن تتجه أنظار العلماء المسلمين إلى دراسة الأديان دراسة علمية منهجية تقوم على منطلقات وأسس، سابقين في ذلك ما أنتجه الفكر الغربي في هذا المجال.
 - يقوم علم الأديان في الفكر الإسلامي على أسس ومنطلقات، وليس علماً غير محكم، وهذه المنطلقات التي ينطلق منها علم الأديان هي الإقرار بالاختلاف بين البشر، مع الاعتراف أن الدين الحق هو الإسلام، كما ينطلق علم الأديان في الفكر الإسلامي من مبدأ الحياد والأمانة مع المخالفين من أصحاب الديانات، فوجود الاختلاف لا يعني عدم العدل مع المخالف، بل إن العدل مع المخالف مبدأ إسلامي أصيل، كما ينطلق علم الأديان في الفكر الإسلامي كذلك من الدليل العقلي الصريح، لأن الدليل العقلي هو الدليل المشترك بين أصحاب الأديان.
 - علم الأديان في الفكر الإسلامي ليس علماً مجرداً من المنهجيات العلمية، بل هو علم يتبع أصولاً وقواعد منهجية منضبطة، وقد تنوعت هذه المنهجيات البحثية سواء اجتمعت هذه المنهجيات في مصنف واحد أو تفرقت، لكنها في

علم الأديان في الفكر الإسلامي

العموم يكمل بعضها بعضاً، ومن أبرز هذه المنهجيات المنهجية الوصفية التي تُعنى بتتبع الأديان وشعائرها واستقراءها دون الحكم على الاعتقادات، ومن المنهجيات كذلك المنهجية المقارنة التي تُعنى بدراسة عقائد الأديان وشعائرها ومقارنتها بالإسلام، وأهم منهجية في علم الأديان هي المنهجية النقدية، وهي نقد الأديان المتمثلة بنقد نصوص الأديان وعقائدها وشعائرها، باستخدام البراهين العقلية المعتمدة.

**

المصادر والمراجع

- الاتجاه العقلي في نقد الأديان في الفكر الإسلامي الخصائص والمنهج، يوسف شعباني، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، الجزائر، العدد الرابع، ٢٠١٢م، (٧٣-١٠٦).
- الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري (٣٨١هـ)، تحقيق: أحمد عبد الحليم غراب، دار الأصالة للنشر والإعلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م
- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان الأندلسي (٨٢٣هـ)، تحقيق: محمود علي حمادة، دار المعارف، القاهرة الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، أبو الريحاني البيروني (٤٤٠هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
- تفسير ابن كثير، ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز (٩١٧م)، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.
- الدين، محمد عبد الله دراز (١٩٥٨م)، دار القلم، الكويت. (د.ت).
- سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة مؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م
- سيرة ابن هشام، ابن هشام (٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقاء، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٩٩٣م

علم الأديان في الفكر الإسلامي

- طبقات المعتزلة، ابن المرتضى (٨٤٠هـ)، تحقيق: المستشرق فلزر، مكتبة الحياة، بيروت. (د.ت).
- علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، المستشرق جب (١٩٧١م)، منشورات مكتبة عويدات، باريس، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.
- علم الأديان، خزل الماجدي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم (٤٥٦هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة. (د.ت).
- الفهرست، ابن النديم (٤٣٨هـ)، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (١٠٦٧هـ)، مكتبة المثني، بغداد، (د.ط)، ١٩٤١م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م.
- مقامع الصلبان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (٥٨٢هـ)، تحقيق: عبد المجيد الشرفي، الجامعة التونسية، تونس، (د.ت).
- الملل والنحل، عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ)، مؤسسة الحلبي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- مناهج البحث في العقيدة، يوسف السعيد، مجلة الدراسات العربية، جامعة المنيا، القاهرة، العدد ٧، مجلد ١، ٢٠٠٢م، (٢٥٩-٣٥٨).
- منهج نقد النص بين ابن حزم الأندلسي وإسبينوزا، محمد عبد الله الشرقاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، (د.ت).

* * *